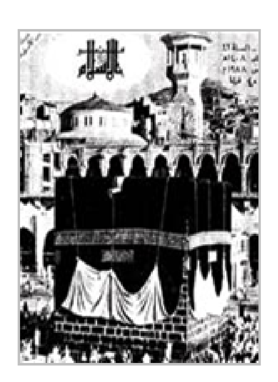
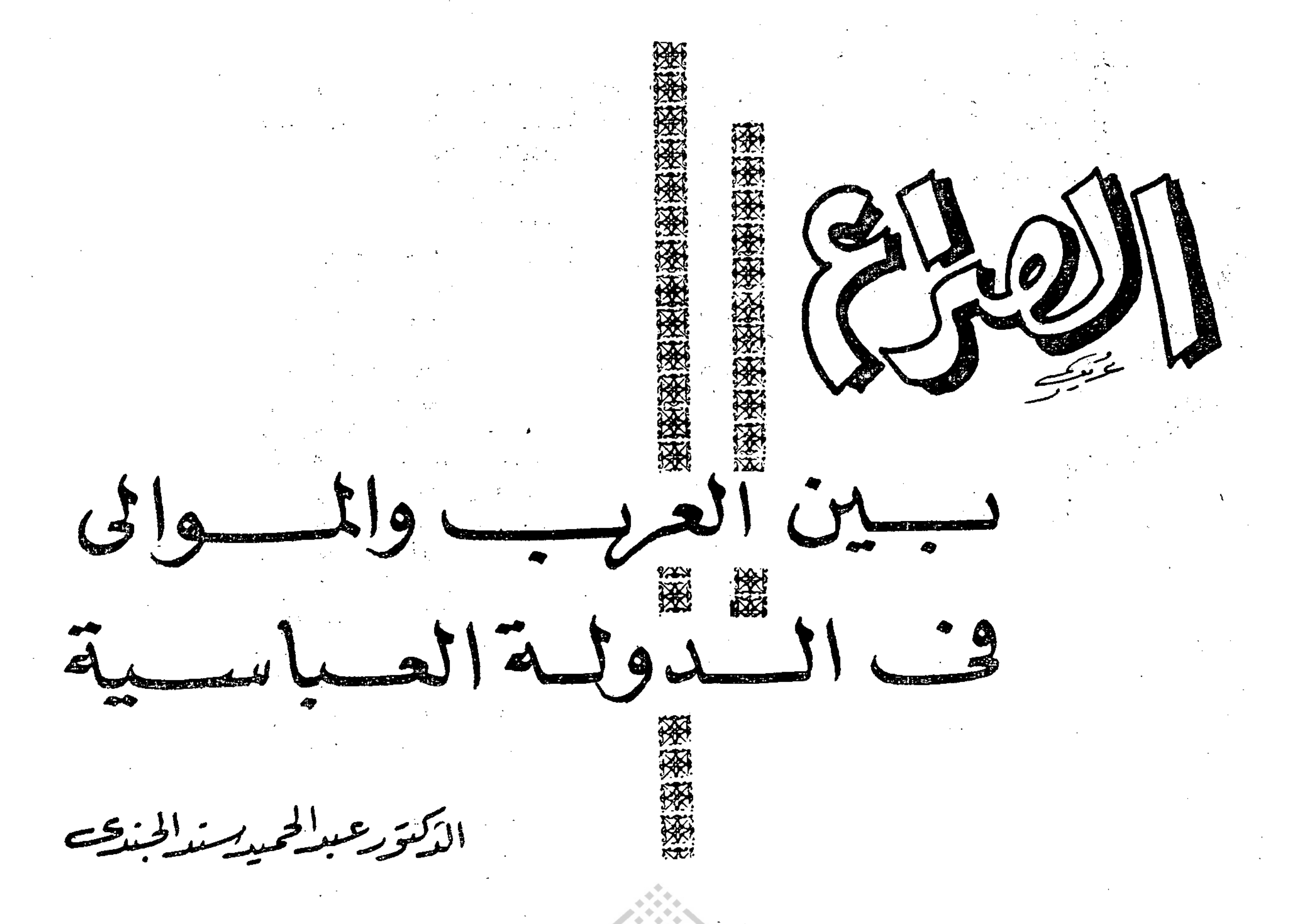


الصراع بين العرب و الموالی فی الدولة العباسیة

نویسنده: الجندی،عبدالحمید سید

میان رشته ای :: منبر الاسلام :: السنة الواحدة و العشرون، شعبان 1383 - العدد 8
از 75 تا 77
آدرس ثابت : http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/647786



لقد اعتنق العرب الاسلام ، ورفعوا راية الجهاد فى سبيل نشره ، فامتشقوا الحسام ، وثلوا عرش الفرس ، ودحروا الروم فى الشام ومصر ، وانتزعوا منهم ما كان تحت أيديهم من أصقاع فى بلاد الشرق .

وقد رفع ذلك من نفسية العرب ، ووقر فى أذهانهم انهم من جنس بشرى لايتطاول اليه جنس آخر ، وتملكهم شعور بالعظمة والاستعلاء ، فنظروا الى غيرهم نظرة السيد للمسود ، وسموا من هو غير عربى « اعجميا » .

والحق أنهمنسوا بذلك روحالاسلام وتعاليمه السمحة ونسوا قول الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » وقوله جل شأنه : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقول النبى الكريم : « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى»

وكان الاولى بهم أن يقتدوا برجالات الاسلام من أمثال على كرم الله وجهه الذى « كان لا يفضل شريفا على مشروف ولا عربيا على عجمى ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل » وعمر الذى ترك المدينة لامر من أمور الدولة فاستخلف عليها أحد كبار الصحابة من الانصار وقال : « لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته » .

وكان العرب ــ شعبا وحكاما ــ فى العصر الاموى يسيرون على ضوء هذه الفكرة أو على ظلامها ، وكتب الادب مليئة بالحكايات التى تدل على ذلك ، وبخاصة الاغانى والطبرى وتاريخ الخلفاء ومحاضرات الادباء .

وبلغ من غلوهم فى هذا الامر أن الحجاج أمر ألا يؤم بالكوفة الا عربى . وروى عنه ــ اى الحجاج ــ انه كان يسم ايدى النبط بالمشراط .

ولشدة احتقار العرب للموالى سموا ابن العربى من الأمة « هجينا » ، ويذكر ابن قتيبة « أن العرب كانت لا تزوج الهجين من الرجال ، وربما كان لاحدهم الولد من الامة فاستعبده » .

ويقول ابن منظور فى مادة « هجين » : الهجنة من الكلام ما يعيبك ، والهجين العربى من الامة لانه معيب»

ويقول صاحب القاموس : والهجين اللئيم ، وعربى ولد من أمة ، ومن أبوه خير من أمه .

وهذه العصبية العربية العنيفة كانت تقابلها عصبية أخرى من أولئك الموالى المستضعفين ولا سيما الفرس ، وهم خلفاء أن يأكل الحقد قلوبهم ، لانهم كانوا سادة فاصبحوا مسودين ، وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم الغابر وعزهم التليد ، ويعتبرون حكم العرب لهم ضربا من سخرية القدر . ولذلك نراهم يهتبلون كل فرصة لاظهار ما يضطرم فى نفوسهم من الحقد والموجدة على العرب . ولكن بنى أمية كانوا يكبتون هذا الشعور أعنف كبت ، كما حدث لاسماعيل بن يسار مع هشام ابن عبد الملك .

بيد أن هذه النزعة التى أخمدها الامويون فى شدة قد اتجهت الى دعاية خفية ضد بنى أمية ، وانتهت بقيام دولة بنى العباس كما نعرف .

وقد عرف العباسيون للفرس عظيم فضلهم فى قيام دولتهم ، وصرح زعماؤهم بذلك فى خطبهم وفى أحاديثهم مثل داود بن على وابى جعفر المنصور . ومن ذلك نستطيع أن ندرك أنه قد أصبح للفرس فى الدولة العباسية شأن كبير ، ولكنهم لم يقضوا على نفوذالعرب تماما ، لان الخلفاء عرب هاشميون وهم يفخرون بذلك. ولهذا نراهم ينكلون بالفرس أشنع تنكيل يوم شعروا

بطغيانهم ، كما فعل المنصور بأبى مسلم ، والرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل . ويقول الرشيد يوم أن ولى الامين عهده قبل أخيه : لولا أم جعفر وميل بنى هاشم اليه لقدمت عبد الله . ولما احس المأمون بدنو منيته أوصى أخاه المعتصم باحسان صحبة أبناء عمه على بن أبى طالب والتجاوز عن اساءتهم ووصلهم وهذا يدل على انهم كانوا يحرصون على ارضاء بنى هاشم .

ومن أجل هذا نرى كثيرا من عظماء الفرس ينزعون الى الفخر بالنسب العربى والولاء العربى ، حتى اننا نرى أبا مسلم الخراسانى يصطنع لنفسه نسبا عربيا ، فينتمى الى سليط بن عبد الله بن عباس . وكذلك نرى اسحاق بن ابراهيم الموصلى – على أثرة مكانته لدى الرشيد – يهرع الى خازم بن خزيمة – وهو عربى – وينتمى اليه ويعتبر ذلك مفخرة له .

فليس من شك اذن فى أن العرب لم يذلوا فى هذا العصر كثيرا ، ولم تتطامن عزتهم الى الحد الذى يصوره المؤرخون . وكل ما حدث أن حركة العصبية العربية قد ظهرت أمامها حركة أخرى فارسية ، وأن الصوت الخافت الذى كان يهمهم به اسماعيل بن يسار قد انطلق من عقاله حرا قويا .

وكان يتزعم هذه الحركة الفارسية المعادية جماعة على رأسهم بشار بن برد الذى كان يفخر بالعجم ، ويتبرأ من الولاء العربى ، ويدعو الموالى الى تركه ، ويحقر العرب . وكان يجهر بذلك أمام المهدى فلا يعاقبه ، على غير ما فعل هشام مع اسماعيل بن يسار. وحذا حذو بشار فى ذلك كثير من شعراء الموالى مثل « ديك الجن » و « الخريمى » (وكان من نداء المتوكل) وكل منهم كان يظهر فى شعره الاعتزاز بالفرس والحط من قدر العرب . ويقول قائلهم ساخرا :

فلست بتارك ايوان كسرى
لتوضح أو لحومل فالدخول

وضب فى الفلا ساع وذئب
بها يعوى وليث وسط غيل

ومن الغريب أن نجم عن هذه الحركة أن انقلب الامر وأخذ بعض الناس يدعون الانتساب الى الفرس ، وفى ذلك يقول جحظة البرمكى :

وأهل القرى كلهم يتنمو   ن لكسرى ادعاء فأين النبيط

ومهما يكن من شىء فقد قوى نفوذ الفرس فى الدولة العباسية ، وأصبحت الاستعانة بهم فى شئون الدولة أمرا مقررا بعد أن كان استخدامهم فى العصر الاموى – على ندرته – يقابل بالامتعاض ويقول الجاحظ : « ان دولة العباسيين أعجمية خراسانية ، ودولة بنى أمية عربية اعرابية » .

ويذكر السيوطى أن المنصور أول من استعمل مواليه على الاعمال وقدمهم على العرب .

ويشير المسعودى الى أن المنصور أول من سن هذه السنة فحذا حذوه الخلفاء من بعده « فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها .

وبلغ من نفوذ الفرس أن حبب بعضهم الى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها فى العراق وتكون حجا للناس ، فبنى بناء سماه « القبة الخضراء » وقطع الميرة فى البحر عن المدينة ، فغضب أهل الحجاز وخلعوا بيعة المنصور ، وقد أفتى بذلك الامام مالك بن أنس ، وسهلوا لمحمد بن عبد الله العلوى الاستيلاء على المدينة ، وقد وجد المنصور عناء شديدا فى التخلص منه ، وعنب والى المدينة مالكا اشد عذاب ، فلما تولى المهدى الخلافة « أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة وفرق هناك مالا عظيما واتخذ حرسا من الانصار » .

ومن ذلك نعرف أن صلة العباسيين بالفرس كانت صلة قوية عملية ، فكانوا يتخذون منهم الوزراء والولاة وكبار رجال الدولة .

وقد زاد نفوذ الفرس فى زمن الرشيد بفضل البرامكة واتسع فى عهد المأمون لما تغلب على أخيه الامين بفضل مناصرتهم له ، وعد انتصاره انتصارا للفرس على العرب.

وقد امتد هذا النفوذ الى أن الخلفاء العباسيين كانوا يتعصبون للاسلام ولا يتعصبون هذا التعصب لعروبتهم ، فحاربوا الزندقة ولم يحاربوا – فى شدة – النزعة العجمية . وساعد على ذلك أن أكثر هؤلاء الخلفاء كانوا من أمهات غير عربيات .

من أجل ذلك كله كان الفرس يشعرون بانهم اصحاب دالة على العباسيين ، ولذلك جهروا – وهم مطمئنون – بتعصبهم لجنسهم والنيل من العرب . وظهر منهبهم المقوت الذى أطلق على هذا الاتجاه التعصبى وهو مذهب « الشعوبية » .

وكان الخلفاء العباسيون لا ينكرون منهم ذلك ، بل اننا نرى المأمون يدنى منه غلاة الشعوبية ، فيجعل « سهل ابن هارون » المعروف بمقته للعرب يتولى الهيمنة على خزائن الكتب الخاصة المعروفة « ببيت الحكمة » . ويكلف « علانا الشعوبى » بنسخ الكتب فى بيت الحكمة ، وهذا الرجل مشهور بشدة بغضه للعرب .

وقد دأب الشعوبيون على أن يسلكوا كل سبيل يوصلهم الى تحقير العرب والازراء عليهم . ومن ذلك التأليف فى مناقب العجم ومثالب العرب . ومن أشهر من وقفوا أنفسهم على ذلك «علان بن الحسن الشعوبى» الذى سبق ذكره ، فقد وضع كتابا فى ذم العرب اسمه « حلبة المثالب » وهو من أشد الكتب التى هتكت العرب كما يقولون .

وقد ذكر ابن النديم عدة كتب من هذا اللون لطائفة كبيرة من أصحاب « الشعوبية » مثل «سعيد بن حميد البختكان » ، وكان كاتبا شاعرا عذب الالفاظ ، وكان يدعى أنه من أولاد ملوك الفرس . وكذلك « الهيثم بن عدى » وهو من أشهر علماء الرواية والاخبار ، وكان من جلساء المنصور والمهدى والهادى ، وقد وضع عدة كتب فى ذم العرب .

أما سهل بن هارون ، الذى أشرنا اليه ، فيقول فيه صاحب الفهرست : كان حكيما فصيحا شاعرا فارسى الاصل ، شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب وله فى ذلك كتب كثيرة » .

ويقول عنه ابن نباتة : انفرد سهل فى زمانه بالبلاغة والحكمة وصنف الكتب معارضا بها كتب الاوائل حتى قيل له « بزرجمهر الاسلام » .

وبلغ من شدة بغضه للعرب أن ألف رسالته المشهورة

فى البخل ، وفيها يقلب الكرم رذيلة والبخل فضيلة ، لان العرب كانوا يتمدحون بالكرم ويعدونه من صفات السيد الجحجاح .

والمعروف أن أهل خراسان مشهورون بالبخل ، ولثمامة ابن أشرس معهم قصة تدل على شحهم الشديد ، وقد أدرك منها أن اللؤم والمنع فيهم بالطبع المركب والجبلة المفطورة)) . وقد أراد سهل أن يهدم هذه الصفة الكريمة التى اشتهر بها العرب ، وأن يحيلها الى نقيضة .

وكذلك الف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتبا فى ذم العرب ، وكان يمقتهم أشد مقت . وقد صور لنا العالم ((ابن قتيبة)) كيف كان يعمد هذا الرجل الى سرد مفاخر العرب ، ثم يتهكم بها أشد التهكم ، ويقارن بين اشرافها وملوك الفرس .

وكل هذه الكتب التى وضعها الشعوبيون فى ذم العرب لم يصلنا منها الا نتف وردت فى بطون الكتب .

ولم يكن الشعوبية يكتفون بذلك ، فكانوا يضعون القصص فى التشنيع على العرب ، ويفسدون الادب بانتحال الشعر واضافته الى غير قائليه فيذيع بين الناس كما كان يفعل حماد الراوية الكوفى وخلف الاحمر البصرى .

وهكذا واتت الاقدار الفرس ، فشنوا على العرب حربا لا هوادة فيها ، زعزعت من مكانتهم ، فشغلوا عن التعصب القبلى الذى تأججت نيرانه فى عهد بنى أمية ، وهبوا جميعا يدرءون عن أنفسهم هذه الحرب الشعواء ولكنهم غلبوا على أمرهم بسبب الجفوة التى كانت بينهم وبين خلفاء بنى العباس ، وبدأوا يحيون فى المدن العراقية حياة اجتماعية تشبه حياة الفرس . ونشأ بينهم لون آخر من التعصب البيئى الاقليمى . أعنى أن عرب العراق كانوا يتعصبون للعراق ، وعرب الحجاز يتعصبون للحجاز وهكذا .

ثم اشتد أوار هذه العصبية فأصبحت تتناول الامصار فى القطر الواحد . فالبصريون يتعصبون للبصرة ، والكوفيون يتعصبون للكوفة .. الخ . واشتطوا فى هذا التعصب البيئى ، فتميم البصرة تفخر على تميم الكوفة .. وهكذا .

ولا شك أن هذا التعصب البيئى قد أحدث نهضة علمية خصبة فى جميع العلوم ، فمدرسة البصرة فى النحو تناهض مدرسة الكوفة ، ولكل منهما أنصار . ولما ظهرت مدرسة بغداد ناهضت المدرستين الاوليين .

وكان الفقيه العراقى ينازع الفقية الحجازى ، ونشأ عن ذلك مذهب الرأى ، ومذهب الحديث .

وقد أورثتنا هذه العصبية البيئية كثيرا من الاخبار التى وضعت فى مزايا البلدان وعيوبها ، وفى طباع السكان وعاداتهم ، وتستطيع أن تقرأ الكثير من ذلك فى كتاب ((عيون الاخبار)) لابن قتيبة .

على أنه ينبغى أن اذكر ان بعض علماء الموالى ممن شرح الله صدورهم للاسلام كانوا يلقون من الاجلال والتقدير ما هم خليقون به كنظرائهم من العرب تماما ، ولا تفاضل بينهم الا بالعلم والتقوى . فنجد فى العصر الاموى ــ وهو عصر التعصب العربى ــ ابن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيب وقتادة من كبار التابعين العرب ، كما نجد بجانبهم الحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وربيعة الرأى من سادة التابعين الموالى ، والناس يأخذون عن هؤلاء وأولئك على السواء لا يفرقون بين أحد منهم . وكان الحسن البصرى يحمل على بعض خلفاء بنى أمية وكبار عمالهم حملة شعواء ولا ينتقمون منه لمكانته وأثارة منزلته . وقد أنكر الناس من الحجاج قتله سعيد بن جبير ونقموا عليه أشد نقمة واعتدوا عمله هذا جرما شنيعا ، لعلم سعيد ودينه مع أنه كان من الموالى .

ويدفعنا الانصاف الى القول بأن بعض علماء الموالى ممن تغلغل الاسلام فى قرارة نفوسهم قد أنكروا من الشعوبية هذا التحامل البغيض على العرب ــ فهبوا يردون عليهم بكل ما أوتوا من قوة . وعلى رأس هؤلاء الجاحظ وابن قتيبة ، وقد وضع الاول فى ذلك ((كتاب العصا)) فى الجزء الثالث من البيان والتبيين ، ووضع الثانى ((كتاب العرب)) ، وكلا الكتابين دفاع حار صادق عن العرب وعن عاداتهم وطباعهم وتقاليدهم .. وكان ((عبد الله بن المقفع)) يعد العرب اعقل الناس ويعتبر عدم الانتساب اليهم ضآلة حظ ويقول : اذا فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة)) .

وبعد فنستطيع أن نستخلص مما سبق أن الصراع بين العرب والموالى قد اتخذ ألوانا ثلاثة :

الأول : الصراع السياسى وكان كل من الفريقين يعتمد فيه على الدس والايقاع بالاخر كلما سنحت الفرصة . ومن هنا كان تنكيل قواد الفرس بالعرب الثائرين فى أطراف الدولة ، وفى قرارة انفسهم شعور بانهم ينتقمون ليوم القادسية ونهاوند . ومن هنا ايضا كان تنكيل الخلفاء بالوزراء الفرس من حين لاخر .

الثانى : الصراع العلمى ، وكان رجاله من كلا الفريقين

الثالث : الصراع الادبى ، وكان مجاله الافتخار بالانساب عن طريق الادب شعره ونثره .

مهما يكن من شىء ، فقد كان تاثير الفرس فى الناحية العملية بارزا واضحا ويمكن اجماله فيما يلى :

١ ــ ملئت قصور الخلفاء بالموالى يستخدمون فى أعمال شتى .

٢ ــ أصبحت المناصب الكبيرة وقفا على الفرس تقريبا وأهمها الوزارة وولاية الاقاليم .

٣ ــ انتشرت الثقافة الفارسية أعظم انتشار ، وتأثرت بها العقلية العربية والادب العربى أشد تأثر وبخاصة فن الكتابة .

٤ ــ تغلغلت النظم والعادات والتقاليد الفارسية فى الحياة العباسية من جميع نواحيها . فالفرس هم الذين أدخلوا على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء فى بغداد أشبه بقصور الاكاسرة فى المدائن .

وقد تعلم العرب من الفرس طرائفهم فى المأكل والمشرب والملبس وفى تأثيث القصور وفى اللهو والعبث .

ولعل أبرز أثر للفرس فى نظام الحكم العباسى الوزارة ، وبجانب الوزير موظف آخر اسمه السياف . وذلك مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة ، ولم يكن معروفا فى الدولة الاموية .

ولقد لعب المنجمون دورا كبيرا فى الدولة ، وكان رأيهم هو الاعلى فى جميع الشئون ، حتى فى الحملات العسكرية . وهذا ــ من غير شك ــ أثر من آثار الفرس .